الفصل الخامس

الخير والشر

ما معنى الخير والشر؟ متى أسمى العمل خيرا ومتى أسميه شرا؟ ما هو الخير الأخير الذى نقصد إليه من أعمالنا؟ وبعبارة أخرى ما غاية الغايات التى ينبغى أن أسعى للوصول إليها؟ — إننا نقصد فى حياتنا الى أشياء كثيرة من مال أو جاه أو صحة أو منصب أو نحو ذلك فلِمَ نقصد إليها؟ وهل هى مقصودة لنفسها أو لشىء وراءها يُعَدّ هو الأساس؟ وإذا كان كذلك فما هو هذا الأساس الذى نسميه الخير الأخير أو غاية الغايات؟ هذا هو موضوع بحثنا فى هذا الفصل.

وإنه لمن السهل استنتاج الأجوبة على هذه الأسئلة مما قرأناه فى الفصل السابق، فإن كل مذهب من المذاهب الثلاثة الماضية يجيب بأجوبة تخالف ما يجيب به الآخر، تبعا لمسلكهم الذى سلكوه فى مقياس الخير والشر.

فالمذهبان الأولان « مذهب الســعادة الشـخصيّة ومذهب السعادة العامّة » قالا : ليس هناك عمـل خير فى ذاته ، ولا شرّ فى ذاته ، وإنمـا العمل يُحكَم عليـه بأنه خير أو شرّ تبعا لنتائجـه ، فالعمـل الذى تَرْجَحُ لذائذُه آلامَه خيْر ، والذى ترجح آلامُه لذائذَه شرّ ، والذى تتساوى لذائذه وآلامه لا خير ولا شرّ ، فإذا سئلت عن عمل أخير هو أم شرّ حسبت نتائجه لأصـدر حكمى عليـه ، والعمـل فى ذاته ليس خيرا ولا شرّا ، بل العمل الواحد قد يحكم عليه فى بعض الأحيان بأنه خير ، ويحكم عليـه فى أحيان أخرى بأنه شرّ ، وذلك لمـا يحيط به من ظروف تجعله ينتج لذائذ أكثر من الآلام أحيانا ، وآلاما أكثر من اللذائذ أحيانا ، ويجب على الانسان إذا خُيّر بين أعمال أن يختار خيرها ، وخيرُ الأعمال ما أنتج أكبر لذة وأقل ألم .

يتفق المذهبان الأولان فى هذا القول و إن اختلفا فى التفصيل ، فالأول يرى أنه عند الحكم بالخير والشرّ لا ننظر إلا إلى العامل ، والثانى ينظر الى العالم أجمع كما سبق تفصيله .

والغاية الاخيرة التى يقصـد إليها المذهبان هى « الســعادة » فكل عمل قرّب منها كان خيرا ، وكل عمل أبعـد عنها كان شرا ،

والمذهب الأول يقصد إلى سعادة العامل ، و يعدّ ذلك هو الغاية الأخيرة للحياة، وهو مذهب ظاهر البطلان كما قدّمنا .

أما مذهب السعادة العامّة فيرى أن الغاية الأخيرة التى ينبغى أن يسعى اليها الانسان هى تحقيق السعادة للناس، وأن العمل خير كلما قرّب من إسعاد الناس، وشرّ كلما أبعد من ذلك، وأن الانسان الخيّر هو من راض نفسه على العمل لخير الناس، و ربط منفعته الشخصية بمنفعتهم ، وتألم من الأذى يصيبهم كما يتألم من الأذى يصيب نفسه، ويحب لهم من الخير ما يحب لنفسه .

أما مذهب «اللقانة» فيرى أن هناك أشياء هى خير فى ذاتها، وهى التى اصطلحنا على تسميتها فضائل، من صدق وعدل وشجاعة وعفة ونحوها، وهناك أشياء شرّ فى ذاتها وهى التى تسمّى الرذائل من ظلم وكذب وجبن ونحوها، ولسنا نحكم على هذه الأعمال بأنها خير أو شرّ تبعا لنتائجها، ولا فى بعض الأحوال دون بعض، وانما نحكم عليها حكما عاما مطلقا مهما كانت نتائجها، فالصدق والعدل والعفة خير دائما سواء أنتجت لذة أو ألما ، والكذب والظلم والشَّرَهُ شرّ دائما سواء أنتجت لذة أو ألما، والانسان الخيّر من وجّه إرادته للعمل حسب ما تهديه نفسه للخير ، والغاية الأخيرة التى ينبغى أن يسعى اليها هى أن يكون فاضلا، يتبع الفضيلة

حيث كانت، ويُلزم نفســه بالعمل على وفقها ولو تحمل فى ســبيل ذلك الآلام الجسام — وليست الغاية هى السعادة كما يقول المذهبان السابقان، ولكن الغاية أداء الواجب ، والتمسك بالفضيلة، وإن ضحى لذلك باللذة والسعادة بل وبالحياة إذا دعت الحال ، وليس للسعادة قيمة إذا قيست بالواجب ، واللائق بشرف الانسان أن يسمع لوحى الضــمير من غير أن ينتظر حساب اللذائذ والآلام ، وأن يفعل الواجب للواجب لا لشيء وراءه .